العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني

الظاهرة الأدبية الصهيونية لا تخرج عن كونها تنظير للفكر الصهيوني وتكتيكاً لآلية فعله. فالأيديولوجيا هي مجموعة من التصورات والأفكار المترابطة والمتلاحمة التي تؤدي معنى محدداً للعلاقات الاجتماعية. وما أقصده بأداء المعنى هنا، هو أن المشتركين في هذه العلاقات يجدون أن تلك الأيجيولوجيا طبيعية مقبولة صحيحة ومبررة ومشروعة. وهكذا فإن أصحاب أيديولوجية معينة يشاركون فيها ويمارسونها عفوياً دون أن يكونوا مكرهين على ذلك.

استطاعت الأيديولوجيا الصهيونية خلق جسم مترابط من الأفكار المنبثقة عن المعتقدات والأساطير والحوادث التاريخية حقيقية كانت أم مزيفة، لتخفي بذلك التناقض الصارخ القائم بين شكلها ومضمونها. وهي بذلك تقوم على «ديماغوجية اجتماعية» بلا حياء وتؤثر على أناس مؤمنين غير ثابتين أيديولوجيا، وغير واعين سياسياً، وهي لأنها مبنية بشكل دقيق قادرة على التكيف حسب الظروف المختلفة. بحيث أصبح وعي ملايين الناس يهوداً وغير يهود عاجزاً عن التميز بين الحقيقة والخيال «الميتافيزيقيا» بين ما هو صحيح وما هو مزيف تاريخياً. فتدعي الصهيونية بأنها تمثل جميع يهود العالم وأنهم جميعاً أينما وجدوا يدينون بالولاء لها ويستجيبون لدعواتها دون تمييز. فهناك من يرفض إصباغ التفسيرات القومية الضيقة على الديانة اليهودية وقيمها الأخلاقية بمدلولها الإنساني.

د.خليل حسونة

كاتب وأديب فلسطيني

ومن هؤلاء «المجلس الأمريكي لليهودية الذي اتهم من قبل الحركة الصهيونية بالتنكر للدين اليهودي وخيانة أصولها ومحاباة العرب وتأييد قضاياهم.

من هنا يمكن الافتراض بشيء كبير من الثقة «أن الصهيونية واليهودية فكرتان متداخلتان بعد أن عمدت الصهيونية إلى تزوير الشريعة الموسوية حتى يتسنى لها استعمار فلسطين. وعلى أساس ما كتب هرتزل من «أن الغاية تبرر الوسيلة». وهي القاعدة التي انحصرت فيها الأفكار الرئيسة للصهيونية كما صاغها كلاسيكيوها هرتزل وبنسكر وبوروخوف وغيرهم والمتمثلة في:

. اليهود هم شعب الله المختار.

. اليهود هم شعب ذو مصير تاريخي وسمات خاصة لا تتصف بها الشعوب الأخرى.

. كل يهودي ينتمي إلى الأمة اليهودية ويجب على اليهود أن يطمحوا للعودة إلى موطنهم القديم فلسطين!

على هذه الأسس استطاعت الصهيونية أدلجة الأفكار وتوظيف الأدب لتحقيق مآربها. فباتت الصهيونية الأدبية هي الوجه الأحدث للصهيونية السياسية بحيث واكبتها من مرة إلى أخرى مطوعة نفسها حسب كل مرحلة. ففي العشرينات كانت النظرة تجاه العرب تتمثل في: «العربي المسلم هو ذلك البدوي المتوحش القاسي الذي يتاجر في العبيد، ومع بداية السبعينات تحول إلى بدوي ثري عربيد نهم للنساء. لتصل الصورة في التسعينات إلى الإرهابي الأصولي المتعصب الذي لا يصلي قبل أن يقدم على قتل الأبرياء وتفجيرهم. فهو شخص همجي أشعث الرأس، يتحدث بلكنة ثقيلة يشتهي أن يملك أموال العالم، يشبه الخنزير في كيفية ابتلاعه للطعام، ويقتل الأطفال بلا رحمة إذا لم يغتصبهم، لذلك لا يحق له الأرض التي يعيش فيها، فهي أرض إسرائيل. هذه الأفكار المزروعة داخل وجدان الإسرائيليين تؤكد إلى أي مدى وصل التضليل الصهيوني البشع، وأن معظم الأدب الإسرائيلي أدب عدواني. يمثله العديد من الكتاب الصهاينة. «أمنون حيفر» مستوطن إسرائيلي في الضفة الفلسطينية يكتب للتلاميذ والطلبة الإسرائيليين محاولاً إعطائهم إحساساً عميقاً بالارتباط بالأرض بعد مئات السنين من الشتات وحياة «الجيتو» على حد قوله. في كتابه «مواضيع مركزية في تاريخ الشعب والدولة» وفي مستهل فصل بعنوان «نعلم كيف تجيب على السؤال بصدد حقوقنا على الأرض» يقول: «إن كل الأقوال بشأن الحقوق التاريخية التي يحفل بها النقاش بيننا وبين العرب تفتقر إلى الحقيقة وناجمة على أي الأحوال لدينا عن قلة الفهم وقلة المعرفة والدراية بتاريخ الاستيطان اليهودي على أرض إسرائيل. إن أمتنا ولدت فرضيات كاذبة بينها تلك الفرضية القائلة أنه لدى عودتنا إلى البلاد، بعد هجرة دامت ألفي سنة، وجدنا البلاد مستوطنة من قبل شعب آخر، أقام هنا مئات السنين. وهذا غير صحيح لا من قريب ولا من بعيد. الحقيقة هي أننا عندما أتينا إلى هنا الآن لم بالتأكيد شعباً أقام مئات السنين».

سمات الحياة الأدبية الإسرائيلية

يشير النقاد إلى ثلاث سمات في الحياة الأدبية الإسرائيلية تؤكد ماهية الثقافة التي تجري ممارساتها بهدف خدمة الأيديولوجية الصهيونية. هذه السمات هي:

1 - هناك تدخل فظ في حرية التعبير الأدبي الإسرائيلي إذا جنح إلى مخالفة جوهر أهداف السلطة الإسرائيلية وهو أمر يمثل الجانب الضيق من عملية شاملة تستهدف تجنيد الأدباء الإسرائيليين من أجل العودة إلى مفاهيم السياسة الإسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيوني.

2 - الأدب العبري في إسرائيل يواكب أهداف السلطة وهو أداة في يدها لتحريك الجماهير اليهودية وهو أدب يحمل سمات الصنعة. والأدباء العبريون «أبواق السلطة الحاكمة والصهيونية هدفها إقناع القارئ العبري بأن ليس أمام العربي إلا الرضوخ لما تمليه عليه الصهيونية وأن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة».

3 - هناك أدب يتحرك لخدمة الدعوة الصهيونية لما يسمى «بالقومية اليهودية» وارتباطها بفلسطين أرضاً وتاريخاً. وفقاً «للمبادئ التي قام قادة الحركة الصهيونية يخوضون على أساسها حملاتهم السياسية لتحقيق الأهداف الصهيونية» وقد عبر عن ماهية هذه الدعوة في إطارها الأدبي الكاتب الصهيوني «حاييم هزار» الذي شغل ذات مرة منصب رئيس اتحاد الكتاب العبريين حين قال «إن عنصرية الشعب اليهودي تكمن في ذاكرته التي ظلت تعي على امتداد عشرين قرناً كونه وحدة غير قابلة للتفتت» وحينما يقول هزار. هذا إنما يريد أن ينفذ منه دور الأديب الصهيوني وتحديده. أن هذا الدور يتحدد في العمل على تغذية الذاكرة الجماعية لدى أبناء الطوائف اليهودية وإثارة مشاعر الانتماء القومي الموهوم لديهم. والعزف على وتر العلاقة التاريخية التي تربط بين اليهودي والأرض الفلسطينية» وكما جاء في سفر ارميا «أيها الرب. رجاء إسرائيل كل الذين يتركونك يخزون».

الأرض التاريخية ومعاداة السامية

إن دراسة الوثائق الصهيونية وأقوال الحكومة الإسرائيلية تبينان لنا مفاتيح المذهب الصهيوني والذي هو مدون في نظريات وأقوال هرتزل وايزمن وبن غوريون وغولدا مئير وقيادات صهيونية أخرى، ونستطيع أن نوجز مجمل آراءهم:

1 - أن العالم الخارجي اللايهودي هو عالم بطبيعته ضد السامية وسيلجأ هذا العالم أخيراً إما لتدمير اليهود وإما لامتصاصهم.

2 - لا مفر لكل اليهود في العالم من مغادرة أوطانهم التي يعيشون فيها «المنفى»!! ويعودون إلى أرض إسرائيل الخاصة والمطلقة لهم. والهدف من العودة أحياء دولة داود وسليمان القديمة. بحدودها المقدسة وبلطيف العبارة فهذه الأرض وطن اليهود!

3 - في سبيل الحفاظ على نقاء العنصر اليهودي يجب طرد كل إنسان غير يهودي وإذا ما رفضوا فإنهم يجب أن يعيشوا تحت شروط سيكولوجية قادرة على خلق جدار منيع يفصل بين المجتمع المقدس والغرباء وهذا تعبير مأخوذ من التوراة. ويحمل الازدراء والاستخفاف. من هنا تسلحت الصهيونية ومنذ البداية بطرق تشوه الوقائع التاريخية محاولة استخدام الحوادث الغابرة لخدمة أهدافها. لهذا يركز الصهاينة في وثائقهم ونشاطهم الدعائي على محاولة البرهان على حق اليهود في فلسطين كوطن تاريخي لهم طردوا منه بالقوة. وذاقوا الأمرين طيلة عدة قرون. ولكنهم ظلوا يحلمون بالعودة إلى هناك لهذا أتقنت الصهيونية كل دعوة لعداء اليهود لدفعهم للانغلاق والمحافظة على «الجوهر اليهودي» ثم دفعهم لتحقيق المآرب الصهيونية لإنجاز الوطن المزعوم وهنا بانت الهجرة والاستيطان ضروريين لتحقيق قيام إسرائيل على الأرض التاريخية المزعومة. ولقد أشار بيجين ذات مرة في برنامجه الانتخابي إلى الهجرة وأهميتها للكيان الصهيوني قائلاً: «ستعمل الحكومة على تشجيع الهجرة باعتبارها على رأس الأولويات» من هذا المنطلق تم ذبح قرى بأكملها على الطريقة النازية وإصدار القوانين المساعدة للاستيلاء على الأرض. ووصم كل من ينتقد تصرفاتهم بصفة اللاسامية ورغبة إبادة اليهود.

وبما أن الظاهرة الأدبية الصهيونية ظاهرة مصطنعة لعدم وجود أدب يهودي بالمعنى العلمي لهذه الكلمة نظراً لأنه لا يغوص في العمق إنما يسير باتجاه السطح لغاية إعلامية تخدم أهدافاً سياسية في العصر الحاضر كما كانت في العصور الوسطى بينما كان هدفه قديماً خلق نوع من النزوع المتعالي بوجه الأحداث التاريخية والانضواء لاجترار تعاليم أثرت تأثيراً مباشراً على بنية اليهود السيكولوجية والفكرية

والإيحاءات الدينية المستمرة ومنها انطلق تصور مشترك كحل لمشكلتهم باللجوء إلى «الجيتوات» فأدى ذلك بهم إلى العنصرية الشوفينية وبالتالي إلى توقفهم أمام تيارات التغير ونواميس التطور.

وتمثل رواية «العشب الأحمر يشتعل ببطء، النهر الأخضر يتدفق للأبد» للكاتب الصهيوني العنصري بنحاس سادية نموذجاً رمزياً للكتابة الأدبية الصهيونية فيها يحاول الكاتب بث توحد صوفي في نفس قارئه بالأرض العربية عبر مقولة «الأرض التاريخية» مستمداً رموزه والحدث في القصة من الموقف الراهن المباشر دون استخدام رموز تراثية أو خوض صريح فيما يسمى بالعلاقة التاريخية وتجسد الشخصيات الثلاثة الرئيسية في القصة ذلك البناء الفلسفي الذي تقوم عليه القصة والذي يرتبط بالشوق الصوفي للأرض والحلم التوراتي الذي يصوره أرض إسرائيل.

«قالت: شيء ما بداخلي يغني. لكن دون نغم

- بماذا يغني؟

- إنه يغني هكذا... العشب الأحمر يشتعل ببطء، النهر الأخضر يتدفق للأبد.

- ماذا بعد ذلك؟

- ليس بعد ذلك شيء. فما قلته يتكرر... ويتكرر للأبد».

التوحد الصوفي بين الأرض والمستوطن

هذا هو التوحد الصوفي بين الأرض العربية والمستوطن الصهيوني الذي يحاول عبر أغنيته الاستحواذ عليها بصورة تزيف الواقع والحقائق التاريخية والتوحد هنا بين «ايفيجيل» الأرض، و«افشالوم» الشعب اليهودي الذي تصلها به وشيجة الدم كما يقول الكاتب الصهيوني. وهنا «التزييف الحقيقي» في أبرز مظاهره، إذ أنه ينفي وجود الشعب العربي في صورة فاضحة لا تمشى وحقائق التاريخ ويستمر ذلك ليقول: إنها «الأرض» محروسة منه بلا إرادة منها أو منه «أي أن العلاقة هنا قدرية تستحضر التراث اليهودي «نسلك أعطي هذه الأرض».

ورغم مرور أحداث كثيفة أبعدت هذه العلاقة، إلا أنها لا تنفك عنه، ففي أعماقها تتردد دائماً أغنية التوحد به. أغنية العشب الأحمر التي تذوي في باطنها رغم الأضواء والرياح الساخنة والدور القائمة الفارقة في السباب والمتداخلة في حروف اللغة العربية وهنا إشارة إلى الوجود العربي، الذي رفض الكاتب الصهيوني جذريته فنعته باللون الباهت.

«عندما خرج افشالوم من الأزقة المتداخلة المتشابكة كحروف اللغة العربية، كانا قد وصلا إلى سوق محنة يهودا. المقفرة» هنا تخيلات أدبية لما يقال بصراحة في وصف حالة الأرض المقدسة عبر ما يسمى بسنوات النفي لليهود هي لا تيأس من عودة افشالوم فها هي «الكراكي المهاجرة» طلائع الهجرة اليهودية تبشرها بقرب وصولها.

«مرت أسراب وأسراب من الكراكي متتابعة متلاحقة. كانت هذه الأسراب فيها يبدو قوام الجماعة المهاجرة الرئيس. أما ما كان قد ظهر منها قبل ذلك فلم يكن سوى طلائع للقوة الأساسية على فترات متباعدة كان يتردد صوت أشبه بنداء قصير. وفيما عدا هذا كان السكون مخيماً. من أسراب الكراكي ما كان صغيراً يضم خمسة أو ستة طيور ومنها ما كان يضم عشرين أو أكثر. غير أنهم جميعاً كانوا يتحركون على شكل رأسي صوب هدف لا يحيدون عنه» وهي صورة وضحها بن غوريون في رسائله حينما قال «وفلسطين ليست إلا إحدى البلاد التي غزوها. يقصد العرب. أما أهل البلاد الأصليون فهم اليهود!! وقد اعتبروها وطنهم عبر أجيال النفي والتشتت» وقد يكون الكاتب اعتمد على قول بن غوريون هذا فحرض في قصته على التسرع في الفعل وتكثيف الهجرة نحو الأرض المقدسة التي يدعي . زوراً . أنها لهم «الليلة.. الليلة أستطيع» هنا دعوة حقيقية للإسراع بهذا الفعل. «لاحت الدموع في عينيها.. أمسك وجهها بين يديه فأحس بمدى سخونة وجنتيها. أحس برائحة جلدها وشعرها المسكرة كانت شفتاها ترتعشان وعيناها المشرقتان تطفحان بتعبير من الألم والرضا في نفس الوقت. وكانت بكل ما فيها بتلك اللحظات جزءاً من حلم» إنه يقارن هنا بين الوجود العربي وطلائع الغزو الصهيوني وارتباط ذلك بالأرض التي هي في حالة حلم وذهول بعينيها المشرقتين تطفحان بتعبير من الألم لوجودها تحت السارية العربية. والرضا لبداية الوجود اليهودي الذي باتت تحلم به.

«وفجأة بدأت ترتعش أراد أن يطمئنها فضمها إليه وجعل يداعب شعرها وكتفيها العاريتين في رقة أحس بأنفاسها الحارة على وجهه وعنقه وسمعها تتمتم بكلمات مختلفة. كلمات غريبة ربما قالتها في أوقات أخرى وطفت على سطح ذاكرتها المضطربة» عله يشير هنا إلى الوجود العربي، وارتباط عرب فلسطين بلغتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم. ويعتبر ذلك دخيلاً عربياً على الأرض في فلسطين كما يصور الكاتب. لكن افشالوم «الشعب» وهو راقد بين اليقظة والمنام تطالعه رؤيا التوحد بـ «افيجيل» التي تحتقت بدار الدعارة وفقدت طهارتها لأنها تعيش في كنف العرب ويعيش افشالوم بأمل تطهرها من الدنس. ويتجسد هذا التطهر في دمائها عندما تذبح لتبعث من جديد أي عندما تغسلها الدماء من آثار العرب. الكاتب الصهيوني سادية يدعو هذا صراحة لقتل العرب. يدعو للمذابح الجماعية التي بها وحدها يسيطر اليهود على البلاد لتصبح الأرض طاهرة خالصة للقادمين اليهود. وهو هنا يستحضر ما قام به «يوشع» عندما استطاع بالخديعة والمذابح الاستيلاء على «أريحا» من أهلها الكنعانيين العرب قبل آلاف السنين والذين لا زالوا يمارسونه حتى الآن باعتبار «أن الشعوب غير اليهودية خارج القانون» ويذكرنا هذا بحال بني إسرائيل بعد ظهور المسيح ثم بحال الذين دانوا باليهودية من الأقوام الأخرى. والذين صاروا غالبية اليهود وعاشوا في أوروبا الشرقية والوسطى فقد عاشوا في جو الأسفار وتلقيناتها ينظرون إلى غيرهم نظرة استعلاء وكيد وكره ومكر وشر. وخلال مسيرة «أفشالوم» و«ايفيجيل» في الطريق الطويل نحو اللحظة المرجوة لتحقيق الرؤيا يظهر لهما الشخص الغريب المفزع. هذا الغريب «المقصود به العربي صاحب الأرض الحقيقي» يعترض المسيرة. ويظهر متلصصاً متربصاً في الظلام. «فجأة أفلتت ايفيجيل وهبت واقفة. جعلت تصيخ السمع وراحت تنظر فيما حولها دون أن ترى شيئاً عدا بضع أشجار هنا وهناك. و«أفشالوم» ينظر إليها مشدوها قالت في صوت خافت: أشعر أنه هنا.

. من؟ أنك مريضة بالأوهام يا ايفيجيل.

. كلا... أنه يختبئ ربما خلف إحدى الأشجار.

. سأبحث عنه... قال «افشالوم» وهو ينهض من مكانه.

ورغم التزوير الواضح للتاريخ لأن العربي لا يواجه في الظلام، إلا أن عنصرية الكاتب أثرت على رؤياه فأسقط ما يدور في نفس اليهود على العرب. فهم الذين يعملون في الظلام وهم الذين سرقوا فلسطين بالدسائس والتآمر. وصهيونيتهم هي التي جعلت دور الدين بالنسبة لليهود «يختلف عن دور الدين عند الشعوب الأخرى وذلك يهدف جعل الوجه الديني للحياة اليهودية مصبراً للوعي الصهيوني الذي هدف منذ قيام الصهيونية إلى استعمار فلسطين وما حولها» بأية طريقة وهذا لن يكون إلا بالقوة لقد ظلت هي العامل الأكبر في تأكيد المقولة الصهيونية «الأرض التاريخية» وبكل انعكاساتها على الأدب والأدباء. فها هي الكاتبة الصهيونية «روث الموجي» تدعو في قصتها «كان يمكن شراء مدفع بهذا المال» لاعتماد هذه القوة من وقت قريب وزعوا عندنا منحاً مالية على الأدباء ألم يكن من الممكن شراء مدفع بهذا المال. يكفينا الخبز. عش الغراب من الكماليات تماماً مثل الحلوى».

تدعو الكاتبة هنا إلى الحرب التي لا يمكن بدونها أن تتوحد بالأرض فالكاتبة «روث» في قصتها هي الأرض وميخائيل بطل القصة هو الشعب والأرض هي التي تطلبه وبأي ثمن لتتوحد به وعبر جو جنسي يبرز هذا التوحد «كان في مقدوري أيضاً أن أقول له: أن الصلة الجسدية هي غالباً العدو رقم واحد ولأنها تؤدي بنا في الواقع إلى تحويل الحب. تحويل الحب من النظري إلى العملي. من الحياة في أوروبا وغيرها. من موطن اليهود إلى التوجه نحو فلسطين أي أنها تدعو لرفض الاندماج في المجتمعات الغربية والمواطن الأصلية لليهود. في قصته «لا لون للخوف» التي تتحدث عن الحرب للكاتب جدعون تلباز قد

يبدو للقارئ السطحي من تتبع أحداث القصة أن الكاتب يتألم للحرب وأنه يقف منها موقفاً راديكالياً. ولكن متتبعاً لأحداث القصة يؤكد عكس ذلك. إذ أن الموقف الراديكالي والموضوعي للكاتب ومن الناحية الإنسانية على الأقل يتطلب توضيح حقوق الآخرين. والآخرون. الفلسطينيون .ولكن الكاتب لا يتطرق إلى ذلك. إنه يتألم للقتلى اليهود الذين يذهبون للاعتداء على الغير لتحقيق مقولة الأرض التاريخية.

«كان الموت أسهل الطرق بالنسبة إليه وجدوه محترقاً ومختلطاً بجزئيات إحدى الدبابات كان من المستحيل معرفة أين تبدأ جثته وأين تنتهي جثة الدبابة لم يبق على أصله الأول سوى الأشلاء وقطع الصلب المغطاة بالتراب أما سائر الأشياء فكانت منتمية إلى الماضي. كالدودة المتحجرة أما الحاضر فقد كان الذباب. ذباب الجيل في بداية الوحشة النظيفة» ورغم الألم الذي يبديه الكاتب للقتيل اليهودي إلا أنه يظهر إعجابه ببراعة الطيار اليهودي المقاتل الذي يلاحق الأعداء «الأغيار» الذين يقلقون اليهود ويظهر الكاتب بهذا المعنى فوقيته البغيضة وهو بهذا لا يخرج عن مقولات الصهيونية في تفوق العنصر اليهودي الذي يستعمر الأرض ويجلب لها الخير على حد زعمه «لن يجلب مجيئنا إلى غور بيسان أي ضرر على عرب المنطقة. العكس هو الصحيح» ويستدل الصهاينة على هذا بقول أحد الخونة قبل عام 1948 حسب ما أورد ذلك بعض الكتاب الصهاينة على لسان عربي من حوران: «إسمع.. أعمل في منطقتكم أكثر من سنة. وكذلك في منطقة حيفا وأرى التقدم وبناء البيوت عندكم وكل هذا بسبب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بسبب المهاجرين الذين يبنون البيوت والحدائق. ومزارع الأبقار والشوارع والأرصفة إنهم بحاجة إلى العمل وكل عائلة يهودية تستوطن فلسطين تعيل ثلاث عائلات عربية. هذا هو سبب تقدمكم هنا. وعدم تقدمنا في حوران لأنه لا توجد عندنا هجرة يهودية».

هذه هي الصهيونية وهذا هو الاستيطان والغطرسة. عائلة يهودية تعيل ثلاث عائلات عربية. والعرب يرحبون باليهود في حوران «سوريا» وهذا كله لن يكون إلا بالقوة. يقول تليلا في نهاية قصته وبعدها اختفت جلبة المحرك من أذنيه وفتح الطيار عينيه واستقبلته أحضان حارة وربتات على الكتف وهو ينزل إلى الممر.

.هل لدى أحدكم سيجارة؟ سأل.

من كل جانب مدت إليه علب مفتوحة سحب سيجارة من إحداها وأشعلها له أحدهم جذب الطيار نفساً عميقاً ثم أطلق الدخان من رئتيه ثم ألقى السيجارة وداسها بقدمه. وما زال كل هذا غير حقيقي. ذلك أنه لم يبدأ في الإحساس بصلابة الأرض تحت قدميه إلا بعد الخطوة العاشرة» يعني ضرورة الاستمرار في القتل حتى النهاية!!؟

في قصة «ش.دويفين» بعنوان «مأخذ الشيطان على فاوست» نرى نموذجاً فنياً مركباً لأدب مقولة «معاداة السامية» ودفع اليهود للهجرة إلى الأرض التاريخية في جانبها الوصفي وإذ أن المعروف أن الشيطان في سفر أيوب يلعب دور الشر. والسفر من كتابات التأمل اليهودية المتأثرة بروح الحكمة والتفلسف اليوناني خلال فترة الحكم اليوناني في الشرق وهو يناقش مسألة الشر في العالم ويطرح تساؤلات محددة حول مبررات العذاب الإنساني الذي يلحق الأخيار من الناس. الشيطان في سفر أيوب يوعز إلى الرب لإنزال ضربات متلاحقة بأيوب لاختبار إيمانه لأن ذلك سيكشف زيف عقيدته ويستجيب الرب للشيطان ويأمره بالتصرف «أبسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فإنه في وجهك يجدف عليك» هذا هو دور الشيطان في سفر أيوب دور محرض القوى السماوية العليا على إلقاء العذاب بالناس ودوره في مسرحية «فاوست» كما يفهمه كاتب القصة دور الشرير الذي يغوي البشر ليعرض عليهم ممارسة الشر والوقوع في الخطيئة. فما الدور الذي ينيطه كاتب القصة هنا بالشيطان؟

يوضح د. البحراوي في تحليله لهذه القصة «أن الكاتب أبرز الشيطان وجعل له دوراً أساسياً فيها فهو الراوية ومقدم التقارير للذات الإلهية ورغم شروره. إلا أن العذاب الذي أصاب اليهود جعله يرق لهم أي أن من يعذب اليهود أشد ضراوة من الشيطان نفسه»!

«يبدو الشيطان أكثر الجميع دهشة. إنه يحاول أن يحد من انفعالاته لابد أنه سيثور معرباً عن موقفه بوضوح غير أنه تعجب الجميع. فيما عدا النائب. لا يفعل لم يجد أمامه سوى النائب ولكن يبدو أن دهشته الكبيرة لم تكن بالقدر الكافي لإخراجه عن صمته.

سأل النائب عن الرجل الذي يتعذب من سنين في أوشفيتس قال النائب «أعني الرجل الذي لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب».

أي أن الكاتب يريد أن يقول لنا أن هناك العديد من المعتقلين في سجون النازي ورغم هذا لا يهمه منهم سوى اليهودي ذلك الذي «لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب» أي التوراة وهنا محاولة رخيصة لغزو العقل الإنساني وشده للتعاطف مع اليهودي المسكين وإبراز الأنانية التي يتميز بها اليهود وهذا يوضح احترام اليهود وعدم قتلهم أو اعتقالهم دون أي اعتبار إلى الآخرين. وفي أتون ذلك الموقف تبرز فوقية الكاتب وغطرسته لتتضح الثقافة العنصرية للشعب المختار!! الذي يميز بالبطولة الفذة. حتى الأطفال فيه يجابهون الألمان ويتخطون أسلاكهم الشائكة المنيعة وهذه لهجة «السوبر طفل» الإسرائيلي بكل تعاليها والتي تكثر في أعمال الكتاب الصهاينة مثل كرميلي وسروج وسبشر وغيرهم وقصة «دينين» الطفل اليهودي

المقاتل الذي يهزم الأعداء في كل زمان ومكان.

في قصة «أنا مهاجر» يدعو أي.ش. مأمور اليهود للعمل في فلسطين لخدمة الصهيونية.

«المهاجر هو اليهودي الذي يسافر إلى إسرائيل لتكريس حياته من أجل الوطن ومصالحه. عندما سمعت هذا التعريف تذكرت يهودياً كنت أعرفه عرف كلمة «حالوتس» رائد الهجرة. بأنه كتلة الحديد الخام الذي يخلق للوطن ما يحتاج إليه. لم يكن اسم ذلك اليهودي «ساشا» بالطبع وإن كان اسمه قريباً من هذا في جرسه «أوسيا» ترومبلدور وهنا دعوة للاقتداء بمن يسمون في الحركة الصهيونية بالرواد الأوائل ومنهم هذا المدعو «ترومبلدور» ومن جانب آخر دعوة لصهينة اليهود الروس وعدم اندماجهم في مجتمعهم الروسي حيث ولدوا وعاشوا. لهذا يستحضر شخصية «ترومبلدور» الحالوتسي الأول «المهاجر» الذي حارب في روسيا وفي الشرق. وفقد ذراعه وقرر أخيراً الذهاب إلى فلسطين للعمل والقتال فيها من أجل الصهيونية فهو «ساشا» الروسي. ولكنه استبدله بأوسيا ترومبلدور وهكذا تترجم مقولة الأرض التاريخية القاضية بحق الملكية المطلق للأرض العربية في فلسطين في شكل فني تتداخل فيه مقولة العداء للسامية الساعي للقضاء على اليهود مع الأرض التاريخية لليهود. واليهود وحدهم.

العنصرية والتفوق

الدور الذي لعبه الأدب الصهيوني على الصعيد الدولي لا يقل عن الدور السياسي الذي قام به رواد الصهيونية السياسية الأوائل. والأثر النفسي الذي أحدثته روايات وكتابات «بنسكر وهرتزل وأحاد هاعام» الأدبية لا تقل أهمية عن كتاباتهم السياسية والأيديولوجية. لقد وقف الأدب السياسي الصهيوني أمام التسامح بقوة ومنذ البداية مقاوماً أي تطلع جدي لحل المشكلة اليهودية. ممارساً التزوير وقلب الحقائق ومرتكزاً على أحداث الماضي لتبرير أحداث مستحدثة ليتعدى ذلك الزمان وذلك المكان مثيراً عداء الشعوب بسلوكيته الشاذة على الصعيد العملي والنظري وإذا كان جام الغضب صب على العرب قديماً وحديثاً. فإنهم ركبوا المركب تجاه الشعوب الأخرى فلم يسلم أحد من شعوب الأرض من سهامهم العنصرية الموروثة ولما كان الأدب الصهيوني أدباً موجهاً فإنه بالتالي يعكس سياسة وفكراً وفلسفة تتبناها الصهيونية جميعها وتعززها لتلعب دورها المرسوم والمخطط لها وتشكل فكرة التفوق أحد المكونات الأساسية للفكر الصهيوني والتفوق الذي يتحدث عنه الصهاينة تفوق شامل بالإضافة إلى أنه أبدي أي أنه ليس مرهوناً بفترة زمنية معينة تمتد منذ صراع اليهود مع فرعون ودخول «يوشع بن نون» أريحا ووقوف اليهود ضد الرومان وحتى الحروب الحديثة بكل ما يرتبط بذلك من أساطير وخرافات قديمة وغطرسة وتزوير متعمد لتاريخ المنطقة. لأن ربط هذا التفوق بمرحلة تاريخية معينة يؤدي إلى حرمان الحركة الصهيونية من استثمار هذا المفهوم أيديولوجياً ومن أجل ذلك نرى الصهيونية أن بيجن مثلاً هو صهيوني نقي. فإن يكن المرء يهودياً يعني عند الصهاينة أنه متفوق بذاته ولذا يحسده الأغيار ويودون لو يزيحوه من طريقهم. فالذات اليهودية هي محور العالم ولا يهم أن يكون للأغيار أي نصيب. ويذكرنا هذا في الوقت نفسه بقول بن غوريون «لا يهمني ماذا يقول العالم بل اليهود». لأن الصهيونية في نظر اليهود جزء من إرادة السماء وأن اليهود قد توحدوا بالرب وأن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير السائد «لا وجه الشبه» ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى تقبع بقية الأمم من الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف. وهكذا نرى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما. وحسبما جاء في كتاب «هاجر» المقدس عندهم «فإن الجسد اليهودي يختلف كلياً عن أجساد بقية الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم وإن كنا نرى ثمة تشابها في الأجساد فما ذلك إلا في المظهر الخارجي فقط أما داخلياً فالفرق بينهم كبير إلى حد يجعل الجسد اليهودي لا يمت بأية صلة كانت إلى صنف بقية الأجساد لأبناء الأمم الأخرى وما يصح على الجسم «المادة» يصح أيضاً على النفس «الروح» إذ أن أصل أرواح بني إسرائيل هي من الروح المقدس ذاته» ولهذا فإن الانتصارات اليهودية الحديثة كما يرى الصهاينة «ليست فقط لأفضلية إسرائيلية بل للمميزات أخلاقية. أي أن في اليهود روحانية تميزهم وتجعلهم يتفوقون وينبغون أكثر من غيرهم» من هنا استنبطت مفاهيم سياسية. التعصب إحدى أبرز سماتها. كما تقول الشاعرة العنصرية الصهيونية «أنا جرينو» في إحدى قصائدها التي تتعالى فيها على العالم:

قالت لي أمي بأني
ابنة لشعب غني بالأسفار.. والأغيار جهلة
حدثتني أن أكون بالمقدمة
لأني يهودية
قالت أمي «إنني ابنة شعب لا يقبل الضياع
واجبي مواصلة الدرب.. درب أبي
لمواجهة الأغيار الأعداء
ولو كانوا كل العالم.

مقابل هذا الاستهزاء بالآخرين فإن هذا الأدب ما برح يضخم المميزات الذاتية المكونة لماهية الصهيوني. فهو باعث حضارة الأمم ودافع عجلة تقدم الشعوب وأساس المدنية. إن النظرية الصهيونية تعتبر بحق من أكثر النظريات الرجعية العنصرية الشوفينية خطراً على الفكر التقدمي العالمي وذلك من خلال جوهرها الذي ينم عن معاداة الشعوب في العالم أجمع لأن «المفاهيم» الفلسفية التي تعتمدها الصهيونية سلاحاً أيديولوجياً تكمن في جوهرها حقيقة العقيدة الدينية الوضعية الجامدة للديانة اليهودية وهي تتجلى في الأسطورة التي تتحدث عن اتحاد اليهود مع الله والاعتقاد باستثناء اليهود والرجعية المعتمدة في هذا الكيان لها طابع أكثر توسعاً وعمقاً ومن هنا كانت دعوات الصهيونية البحث عن أرض تضفي صفة الشرعية لكيانها بأي وسيلة حتى ولو كان القتل والاغتصاب أساساً لها. في مقطع بارز للشاعر «جبرائيل اليشع» يظهر وضوح ما تكنه الحركة الصهيونية للإنسانية من كره ها هو يقول:

لا نطلب الغفران كقط ساعة النزو
هذا زمن الذئاب المفترسة
لا التنسك والصومعة

هكذا استطاع المنظرون الصهاينة النفاذ إلى أعماق الفرد الصهيوني بالإيحاء المستمر بشبح الدياسبورا «الشتات». وكان الأدب الوسيلة المثلى لاقتحام نفوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية فالأديب الصهيوني «حانوخ برطوف» يرى أن التغير هو معرفة القتل والمشكلة هي مشكلة وجود يهودي. لكي يستطيع الوجود يتوجب عليه القتل. بهذا المنطق غمرت الكتب الأدبية أسواق الأرض المحتلة. وكلها تشيد بالجندي السوبرمان والجيش الذي لا يقهر في الوقت نفسه وبنفس القوة تحاول الحط من القدرات العربية وتنتقص من مبادئها الإنسانية وتراثها.

في قصة «الينبوع» يفسر الكاتب الصهيوني «هشنر» أعمال أبطاله العدوانية في فلسطين بسبب الأعمال الثأرية في ألمانيا: اليهودي بات المفجوع بمقتل حبيبته سارة التي لقيت مصرعها على يد النازيين بقتل العرب ثأراً من الألمان «كان متعباً ولكنه أحس جسده خفيفاً بصورة لا تصدق واستدار نحو الدبابتين هذا من أجلك يا سارة من أجلك» وجوزيف في رواية لصوص الليل يمارس الإرهاب في فلسطين لماذا؟ لأن «دينا» قتلت في ألمانيا. أما إذا كان الكاتب مثالياً فقصته ستنضح بطولات خارقة وقدرة نقل الحديد، يمكن معها إدراجها ضمن الأساطير وقصة «ساعة واحدة لإستر» للكاتب الصهيوني «كونراد برمش» تسير بهذا الاتجاه.

في قصة «خربة خزعة» يورد القاص «يزهار سمولنسكي» أحاديث كثيرة ومتنوعة بين الجنود الإسرائيليين قبيل احتلال القرية وبعد احتلالها. ويمكن أن نفهم من هذه الأحاديث نفسية الجندي الإسرائيلي «البطل!!» ورأيه في العرب من النواحي النفسية والاجتماعية والثقافية فيدرك القارئ ماذا تضمره هذه الشخصية من شعور تجاه العرب.

مما لاشك فيه أن قصة «سمولنسكي» خربة خزعة هي صور متعددة انتزعها المؤلف مما وصل إليه من فظائع الحرب الفلسطينية وفيها تظهر آثار التربية الصهيونية للناشئة آنذاك وما حشدته فيهم من غطرسة وشعور بالتفوق والتسامي. والكاتب «عاموس عوز» في قصته «الرجل والأفعى» يبرر هذه الأعمال ضدهم فلقد جاء في قصته هذا النص: «البدوي يشم رائحة الضعف من بعيد فإذا لاطفته بكلمة طيبة أو ابتسامة يهجم كالحيوان المفترس يحاول اغتصابك حتى أنني هربت منه. أنا لا أرتجف من المياه الباردة بقدر ما ارتجف من الاشمئزاز. ما أشد اسوداد أصابعه كيف أمسك بي من رقبتي فقط بالضرب وبالرفس هربت منه يجب أن أغتسل بالصابون» إن صورة العربي في هذه القصة كما رسمها «عوز» حالات صراع بين «الإنسان المتحضر الذي يمثله عادة اليهودي إبن الكيبوتس والطبيعة المهددة بالخطر وممثلوها هنا هم «بنات آوى العرب والجبال».

إذن هل يحق لهؤلاء العرب، في رأي الصهاينة، الحياة؟ بالطبع لا. وهنا تكون البطولة هي القتل، والقتل فقط ومن يقتل هو البطل. ففي قصيدة «أيوناثان غيفن» تحت عنوان «عدت من إجازتي» يقول الشاعر القاتل:

يجب عليك أن تقتل
حين تعود وتقص على والدتك
أشياء كثيرة وجميلة
أشياء جميلة
لماذا القتال؟
لماذا هذا السلوك من العرب؟

لأن العربي حسب الأدباء الصهاينة لا يفهم سوى لغة واحدة. فهو يحترمك كلما عاملته بقسوة وفظاظة. القوة هي اللغة الوحيدة التي يجب أن يعامل بها. وإذا ما ارتفعت عنه القوة وعومل بليونة فإنه يعتقد أنك تخشاه فيتمرد. إذن فالعربي في نظر الكاتب العبري يجب أن لا يعامل عن طريق الند للند وكثيراً ما نجد أن هذه العبارة في قصص الأدباء الصهاينة «إن العرب لا يحترمون جاراً ضعيفاً». ويضيف «يهودا آشريبر» في قصته «القائد الأول ليهوذا» اعتداءات العرب المتكررة صباحاً ومساءً على اليهود الذين يسكنون على الحدود بين يافا وتل أبيب بأنها تسلية يتسلى بها العرب «وكأنهم ليسوا أصحاب قضية» وهنا إشارة إلى أنهم قتلة همهم الاعتداء فقط ويقول الكاتب: إن مجموعة من الشبان اليهود قرروا الانتقام ومهما كان الثمن. وفعلاً توقف اعتداء العرب بل وتقدموا بالشكوى إلى السلطات البريطانية، وهذا الرأي شائع بين اليهود في فلسطين المحتلة. فلقد أجرى «يوحنا بيرس» وهو أستاذ في جامعة تل أبيب استطلاعاً للرأي دل على شيوع هذه الفكرة بين أبناء الطوائف الشرقية بشكل خاص إذ أجاب 89 % منهم بوجود مثل هذه الفكرة عن العرب، وتجدر الإشارة إلى أن كاتب القصة لم يذكر الأسباب الحقيقية التي حفزت العرب لقيام بهذا الهجوم سوى أنه كان انتقاماً للاعتداء على لص آثم «اللص هنا هو العربي» لم يذكر الكاتب لمن كانت هذه الكروم والمزارع وهنا تزوير حقيقي للتاريخ!!

ويتبع شموئيل عجنون لإبراز هذا المعنى في قصته «من عدو إلى محب» أسلوباً رمزياً فهو يتحدث عن صراع مع الأيام ذلك الصراع الذي بدأ عندما نزل الكاتب في منطقة «تلبيوت» إحدى ضواحي القدس حيث بنى خيمته فيها: «قيل أن نبني تلبيوت كان يحكم كل البلاد ملك الرياح ووزرائه وعماله، رياح قوية تسكن في الجبل وفي السهل، والتل، والبراري وتعمل ما تشاء. وكأن البلاد أعطيت لها وحدها فقط» وتعترض الرياح سبيله ونسأله ماذا يفعل هناك فيجيب بأنه يتجول ونهزأ منه الرياح فتهب وتوقع الأذى به وبخيمته ولا يدع «عجنون» الأسى يتسرب إلى نفسه ويعود ليبني بعزيمة ونشاط بيتاً قوياً ذا أساسات عميقة في المكان نفسه في «تلبيوت» وتأتي الرياح فلا تستطيع هدم البيت بل تهدم ما حوله وتخربه ويقوم عجنون بزراعة الأرض وتأتي الرياح لتفعل فعلها من جديد ولكنها تفشل لأن الأشجار ضربت جذورها وصمدت أمام الرياح ومنذ ذلك الحين أصبحت الرياح تزور الدار بصورة مهذبة وكذلك تعرفت أنا عليها ومنذ ذلك الوقت أصبحنا أصدقاء». هذه القصة إشارة واضحة للصراع العربي الصهيوني بتسلسله التاريخي فالريح هم العرب وقفوا في وجه الهجرة الصهيونية المبكرة «الخيمة» لكن ازدياد هذه الهجرة وضرب الخيمة أوتادها بتكوين دولة الكيان الصهيوني أفشلت الفعل العربي فكانت هزيمة 1948 «الأشجار ضربت جذورها وصمدت أمام الرياح» فلم تستطع الرياح هدم الدار عندما صارت متينة الأساس قوية محاطة بأشجار عميقة الجذور. وأن هذه القوة غلبت العرب وفرضت عليهم أن يحبوا صاحب البيت «إشارة إلى السلام المبني على القوة الذي يجب على العرب الاقتناع به» لأن دبابات الجيش الإسرائيلي كما قال ديان «هي التي تأتي بالسلام» والأدب العبري يظهر العربي إنساناً متخلفاً لا يعرف كيف يتصرف وأنه بعيد عن الثقافة والتحضر. «فموشيه ستايبسكي» يؤكد «أن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تكون منعدمة بين العرب» ويضيف «إن عادة الاستحمام تكاد تكون غير مألوفة عندهم باستثناء غسل بعض أعضاء الجسم من أجل الصلاة والوضوء». ويدعي زوراً أنه نقل عن امرأة أنها «أقسمت بالله أنها ولدت ستة أولاد دون أن يمس الماء جسدها» ولا يشعر «ستايبسكي» بالكذب عندما يقول إنه «لا يستبعد أن يبصق صانع القهوة في الفناجين كي ينظفها».

في قصته «بلاد بنات آوى» يوضح «عاموس عوز» على لسان شاب يهودي يدعى «متيتياهو» بعض تخيلاته التي هي صورة مخيفة لسيل جارف من القذارة «جمهور قذر غامق اللون، يقشر القمل والبراغيث وله رائحة كريهة، والجوع والكراهية بسبب جفاف وجهه تتوقد عيونهم توقداً جنونياً». وقد امتدت هذه الأوصاف لتشكل توجهاً

تربوياً لأطفال الصهاينة بكل ما يخلقه من شعور بالاستخفاف المهين بالعرب. ويرى علماء الاجتماع أن الإسقاط الذي يدفعه الصهاينة ويلصقونه بالعرب يدخل في إطار ما يعرف بالاتجاه العرقي والذي يقصد به «اتجاه يتبناه الشخص حيال بعض أو كل أعضاء جماعة عرقية بشرط أن يتأثر هذا الاتجاه بمعلومات مفترضة حيال الأفراد والجماعات».

وبناءً على ما سبق فإن القيم الصهيونية والتي تشكل معياراً لأصحابها وترتكز على مجموعة نظم من المعتقدات في جانبها الأدبي تتمثل في المضمون النوعي من الاتجاهات كحالة مركزية تحدد سلوك الأفراد في المجتمع الصهيوني ورغم أنه قد لا يعي الشخص القيم التي تشكل نسقه على المستوى الشعوري وبالتالي فإن التعبير الصريح عنها يكون مضللاً إلا أننا نرى في أعمال الصهاينة وبدون استثناء قوالب من العداء ثابتة ضد كل ما هو عربي كالخيانة والقذارة والتخلف أي الهمجية بشكل عام. إذن ينبغي أن ينتهي العربي المتوحش القذر ويبقى اليهودي المتحضر والمسالم الذي يعمر المنطقة ويبقى عليها سمات حضارية رفيعة. هذا التزوير انعكاس لصفات اليهود «السلبية» الكثيرة أبرزه الكتاب العالميون فقد وصف تشوسر اليهودي بأنه يحمل صفات سلبية مختلفة كالخائن وقاتل المسيح والمتوحش وغيرها. وقال مالرو في رواية يهودي مالطا: «إن اليهودي مسبب لانتشار الأوبئة» كما أطلق نفس الصفات على اليهود الأديب البريطاني وولتر سكوت وتكررت أسطورة شايلوك في رواية ايفينهو وفي رواية أولفرتويست لديكنز كما لمسنا صورة اليهود عبر القناعات الثابتة في أعمال برايت وانثوني ترولوب وداموريا. وغيرهم وجاء بحث لروزنجر بأن صفة اليهودي في الأدب الإنجليزي ظلت ثابتة لم تتغير وأن التغيير الذي طرأ عليها كان غير ذي أهمية وسيطرت عليها القوالب الثابتة ورغم هذا تحاول الصهيونية إسقاط صفاتها على العرب وفي محاولتها ترسيخ هذه الفكرة اصطدمت بمقاومة الشعب العربي الفلسطيني الذي لم تستطع أن تنفي وجوده كلية وأوقعها هذا في تناقض حاولت تجاوزه من خلال تركيز دعايتها على شخصية العربي القذر الذي يتنازل عن أرضه راضياً. ومن الأمثلة على ذلك شخصية «رشيد بك» في كتاب هرتزل «الأرض القديمة الجديدة» التي ترحب بالمشروع الصهيوني بما يعني أن العربي لا يستحق هذه الأرض.

وهذا ينسفه ما ورد في يوميات «يوسف فايس» مدير شعبة الأراضي والأحراش حول تخطيط وتنفيذ عمليات التشريد «وقد لاذ الأهلون بالصمت التام عدا رجل واحد انبرى قائلاً: ليس على وجه المعمورة كلها أفضل من ترابنا ولا أعدل من مناخنا وأن حفنة تراب بين صخورها تساوي سهول العالم بأسره».

كتب أحد طلاب المدارس العليا موضوعاً إنشائياً حول العرب فقال: «إن العرب يريدون مواصلة ما بدأه الألمان وقتل جميع اليهود في أرض إسرائيل». وقال تلميذ آخر في وصف العربي: «وجهه غريب صغير، مثير للغضب، وشعر أخضر من بلاد ليست بلادنا» ومن الملاحظ هنا وجود عبارة «ذو شعر أخضر» وهي تدل على البعد الهائل وانعدام الالتقاء والجهل «وكأن العبارة مقتبسة من أدب العلوم الخيالية الذي يصف مخلوقات غريبة ومثيرة للرعب، تهددنا لكونها غريبة عنا» إذن الفكرة الصهيونية توجه الأجيال اليهودية عبر كتّابها نحو عنصرية ضد العرب يحاولون غرسها في نفوس الطلاب. ففي سؤال من مجموع أسئلة امتحان «الإعادة» لطلاب «جفعون» عام 1971 جاء ما يلي:

«لم يتوقف استيطان اليهود لفلسطين أبداً. وبغض النظر عن عددهم الإجمالي في البلاد، كان الكثيرون منهم مفكرون وحكماء ومبدعين وبالمقارنة معهم فإن العرب والمسيحيين الذين

استقروا في هذا المكان لم ينتجوا في فلسطين أي شيء له أهمية بالرغم من قدسية البلاد لأديانهم. وفي كتاب قواعد اللغة العبرية المقرر على مناهج الثانوية نقرأ عن العرب في صفحة 277: العرب سلبوا، وقتلوا.

ونقرأ عن اليهود في صفحة 117: «اليهود جلبوا الحضارة إلى الشرق الأوسط» وفي مقدمة كتاب دراسي أعده الدكتور «نسفروني» ورد التأكيد على أن «شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها. وأكثر العناصر افتخاراً لأنه تكون عن طريق انتقاء الأفضل» وجاء في وصف العرب وتحديد طابعهم «هذا العنصر الغريب في البلاد بطينته والدخيل على رسالتها وتطلعاتها يعيش الآن فوق ترابها ويستغل خيراتها. ولابد من أن نحاربه كما حاربنا من سبقه من الغزاة والأجانب الذين استولوا على البلاد في العهود الغابرة ونهبوا ثرواتها» وبالتالي فهؤلاء العرب غرباء في العرق الصهيوني يجب طردهم أو قتلهم. وهذه حقيقة الفكرة الصهيونية.

في ملحق صحيفة «هآرتس» ينشر شاعر صهيوني يدعى «اكور» بتاريخ

1982/7/2 قصيدة له بعنوان «لو كنت قائداً لجيشنا الأسطورة» .. «لو كنت قائداً لمنطقة بيروت المحاصرة والمختنقة لصرخت في وجه كل أولئك الذين يطالبون بإعادة المياه ويصرخون ويتألمون ويطلبون إعادة الدواء والطعام إلى المدينة المحاصرة».

ولا يتوقف «اكور» عند حد الصراخ فهو ذو مزاج مختلف وعمله يتطلب أكثر من ذلك. القتل. لكنه يطالب بأكثر من وسيلة «لو كنت قائداً لجيشنا العظيم لزرعت الموت والدمار في كل المزارع والشوارع في كل المساجد والكنائس».

فالفلسطينيون في نظره شعب زائد أو فائض عن حاجة البشرية لذا يجب إلغاؤه فلا وجود له في وطنه وهذا يذكر بمقولات منظري الصهاينة هرتزل وجابوتنسكي كتجسيد قانون لأحد أبرز أشكال الصهيونية وهو العنصرية التي تقتضي فلسفتها القضاء على حقوق ووجود الأمم الأخرى. والشاعر هنا يتقمص شخصية «يوشع» في تدميره لأريحا فيتخيل الدماء تسيل أمامه فيسعده المنظر لذا يطلب المزيد ليس للمحاربين بل لجميع أفراد الشعب. وهنا يمكن القول أن الأمثلة التي أوردناها تثبت بدون شك نظرة الأدب الصهيوني العنصري ضد العرب بما يتنافى مع الدور الإنساني الذي يستحق الحصول على جائزة «نوبل» فهو أدب ميكافيللي بكل أبعاده تخلى عن واجبات الأدب الضرورية «الحق، والخير، والجمال» وآثر الالتصاق بالتوراة التي جعلت مفهوم المطلق والجوهر في خدمة الأحبار وبالتالي فقد جاء أدباً مصطنعاً يرشح بالكراهية والحقد إلى أبعد الحدود.

البراءة الزائفة والأحزان الموضوعية

يقع دارس الأدب العبري أسيراً لحالة من الحيرة والدهشة لدى اطلاعه على اتجاهات هذا الأدب بعد حرب أكتوبر 1973 ومحاولة إيجاد علاقة انعكاس وتأثر تربط بين الاتجاهات العامة في هذا الأدب وبين التغيرات التي أحدثتها الحرب فلقد لحقت بالنموذج الفكري الصهيوني الذي يصوغ الموقف من العرب والأرض العربية ارتعاشه أثارت موجة المراجعات الفكرية فبدأت تظهر في المصادر الصهيونية تأملات فلسفية تطرح أسئلة من نوع «هل كانت الأيديولوجية الصهيونية في أساسها أيديولوجية عنف وأنانية قومية أم كانت أيديولوجية تسعى إلى العدل وتنشد التفاهم مع شعوب العالم بما في ذلك الشعوب العربية؟» وراحت تطرح توصيفات للوضع الأيديولوجي السائد قال عنه أحد الصهاينة «أنا لا اعتقد أن دولة إسرائيل أو الصهيونية جواب شاف على قضية الشعب اليهودي».

من تحليلنا لنصوص ما بعد حرب أكتوبر نرى الاستجابة الأدبية الصهيونية وما تلاها من ارتعاشات في قاعدة المقولات الزائفة بمثابة إضافات كمية لم تبلغ القدر الكافي لإحداث تحول كيفي في أوضاع الحياة الإسرائيلية سواء في مستوى الوجود المادي أو مستوى الوعي فيها. أصبحت المقولات الصهيونية بين مد وجزر ترتبط بالعلاقة الجدلية بين الرفض العربي وحلم القبول بها.

ومن هنا استمرت في الأدب الإسرائيلي حتى الآن تلك الاستجابة المكونة من شعبتين «شعبة التأمل والتوجع الموضوعي» وشعبة البراءة الزائفة في تفسير ما حدث في إطار المقولات الصهيونية والأدب تعبيرات وأحاسيس ذاتية وانعكاسات للمجتمع على نفس الأديب الذي يتكلم لغته ويحيا ظروفه. ومعاناة الأديب جزء من معاناة الجمهور ولكن الإضاءات الإنسانية مفقودة في النتاجات الأدبية الصهيونية فهي إما اسقاطات مرضية تستهزئ بقيم الغير أو انضواء واجترار لتواريخ معينة. إنها أكثر تجسيداً لمعاناة المستوطن.

بناءً على ما سبق أو المفترض على الأقل أن تكتسب صورة العربي في الرؤية الأدبية ملامح مختلفة فلا يعود ذلك القاتل المتعطش للدم اليهودي دون دافع سوى غريزة معاداة السامية. وأن تتغير بالتالي في هذه الرؤية صورة المحارب الإسرائيلي ذلك الإنسان «المسالم» الذي يضطر إلى القتال والبلاء المجيد فيه ضد موجة الخطر الجديد الذي يثه العرب. في قصيدة «الحرب المقبلة» للشاعر الصهيوني «يعقوب باسار» التي كتبت عام 1962 يتصور القارئ أن الشاعر رافض للمقولات الصهيونية وأنه متمرد ضد أصول السياسة الصهيونية:

وفي قاع العيون جملان في لون الليل البهيم
يرشف كلاهما من فم الآخر
مياه الرعب الخضراء
ذلك لأننا نستثبت في تأن وثقة
زهرات الحديد في الحرب المقبلة
ما بين حجرات النوم وحجرات الأولاد

إذا ما تنبهنا إلى هذه الفقرة من القصيدة وإلى صورة الجملين الأسودين اللذين يتبادلان الحقد ويرشف كل منهما من الآخر مياه العرب لاكتشفنا أن الرؤية التي تحكم الشاعر رؤية موضعية لا تتجاوز الاستجابة لوقع الآلام التي تتأمل أصول الصراع ودوافع إثارته فليس الجملان سوى طرفي الصراع والشاعر يختار رمز الجمل للإشارة إلى كل منهما على أساس تصوره أن العرب الساميين المنحدرين من أصول صحراوية لا يجابهون اليوم سوى العبريين الساميين المنحدرين من نفس الأصول. من جانب آخر أستطيع الادعاء بل التأكيد بأن عنصرية الشاعر وارتباطاته الأيديولوجية الصهيونية تبرز في التعبير المستلهم من الصحراء بمعنى ارتباط اليهود بهذه المنطقة وجذريتهم فيها. وهذا تزوير للتاريخ فالوجود اليهودي في المنطقة كان عابراً ولفترة قصيرة جداً ليس لها وزنها بالمطلق في التاريخ وهذا يلغي بالطبع تعريف الصهيونية للقومية اليهودية القائل بعدم تجريدها من الأرض. لأنه لو تم ذلك لكان هذا قضاء على طابعها المميز الذي يستهدف الوجود العربي كله ومع ما في طرح الشاعر الصهيوني من خطأ تاريخي حيث أن الصهيونية ليست تعبيراً عن امتداد سامي سلالياً أو حضارياً أو عرقياً. فإن الشاعر رغم براءته الزائفة ينتصر لهذه الصهيونية. فهو في كونه وضع الطرفين في وضع متساو «الجملان» فكلاهما يبادل الآخر

الحقد والرعب. لكن عدم توضيح الشاعر من المعتدي عليه يجعل حزنه موضعياً دون أن يشير إلى الطرف صاحب المسؤولية في ذلك ويحاول الشاعر الإرهابي أن يلبس جلد حمل ويبرز براءته وأنه ضد الحرب والقتل. ولكن ليس كل القتل فهو يحزن لقتل الصهاينة فقط لأنه يزور التاريخ بإبراز أن أرض الشعب الفلسطيني له.

وضع الأقلية العربية الصعب

في دراسة أجراها أحد أساتذة الاجتماع في فلسطين المحتلة على طلاب المدارس الابتدائية خرج بالنتيجة التي تقول أن 60 % من 1066 طالباً قابلهم في مقابلات مفتوحة وتتراوح أعمارهم بين 9 ـ 14 سنة أيدوا الإفناء الكلي للعرب المدنيين المقيمين في إسرائيل في حالة أي صراع مسلح مع الدول العربية وفي مثل هذا الجو النفسي يمكننا أن نتصور الجو الإرهابي الخانق الذي تعيش فيه الأقلية العربية في فلسطين المحتلة. والرغبة في الإفناء التام ليس مجرد تفكير صبياني بل عقيدة. وليس أدل على ذلك من أن الصهاينة يعتبرون مرتكب مجزرة الحرم الإبراهيمي من الشهداء والقديسين.

وتقوم حرب أكتوبر ويتحرك الأدباء الصهاينة لإبراز براءة الذئب الصهيوني ويصبح السلام مخرجاً. ولكن أي سلام هو المرغوب. الشاعرة الصهيونية «حنداه هركابي» تبين ذلك فتقول:

لذا... فإني أقول

الحزن هو مجرد حزن والألم ليس سوى الألم

حتى الجبال يمكن تحريكها

رغم قدرتها على الرفض

تريد الشاعرة أن تحرك الجبال العربية وتزحزحها لتتسنى لها حياة هادئة مع رجلها على حساب الآخرين.

في قصيدة تحمل عنوان «أغاني أرض صهيون» كتبها الشاعر يهودا عميحاي عام 1974 يمزج الشاعر بين الآلام الصهيونية المدعاة وضرورة إنهاء هذه الآلام عن طريق الاستيلاء على الأرض العربية «والاحتفاظ بأرض فلسطين عام 1948» مبرزاً مقولة أحد المستوطنين الأوائل «ترومبلدور» بشكل إيحائي ليثبت ضرورة التمسك بذلك. وهذه القصيدة تتميز بتركيب الرؤية والبناء الشعري فهي تقدم المقولات الصهيونية في حالة التشابك والاتساق الهندسي الداخلي. وهذه هي حالة المقولات في نسقها الفلسفي:

لعل الكلمات الأخيرة التي لفظها «ترومبلدور»

ما أحلى الموت في سبيل أرضنا بنو الوطن الجديد

مثل نخل الحقل في مجموعات مجنونة

حتى ولو لم تكن هذه كلماته

أو أنه قالها ثم اختفت

تظل مكانها محفوراً كالكهف

فاق الملاط والأحجار صلابة

هذا هو وطني

الشاعر هنا يجتر قول «هرتزل» عن الدولة المرتجاة «اللاثينية» على قاعدة التمسك بالأرض حيث يدعى أن اليهود هم الذين عمروها فهي صحراء بدونهم ومقفرة بدون جهودهم وهنا ترديد غير مباشر لمقولة «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب» بكل ما فيها من زيف وتضليل وخداع وتآمر.

الوطن المتعين الذي يراه الصهاينة والذي اكتسب ملاط بنائه صلابة وتماسكاً يفوقان صلابة وتماسك الأحجار «مقولة الأرض التاريخية الممزوجة بالوجد اليهودي الكلي» حيث يمارس اليهودي حياته العادية على حساب الآخرين بالاستبسال حتى الموت لأن كنوز هذه الأرض «فلسطين» فليست من المعادن الطبيعية بل من عظام الموتى اليهود الذين قاتلوا في سبيلها ليحققوا لها الوصول إلى عصر «المسحاء» «عصر الخلاص اليهودي المطلق» الأمر الذي يعني أن الطرف الآخر في المواجهة ليس سوى ذلك العدو اللاسامي الذي يحاول أن يقطع طريق شعب في التزاوج مع أرضه. وهذه ليست سوى نفس الرؤية التي تغص بها المقولات الصهيونية.

بعد حرب 1967 ومروراً حتى الانتفاضة الفلسطينية 1987 انبثقت عن الأدب الصهيوني تطلعات وتوجهات متباينة حسب الظروف والمتغيرات. فهي تدعو للاغتصاب والقتل بعد كل انتصار صهيوني وتدعو إلى السلام المزيف مغلفة ببراءة غير حقيقية تعتمد على الإحباط الذي يعانيه المستوطنون الصهاينة فيجترون آلامهم دون أن يتخلوا تماماً عن المقولات الصهيونية. ويمكننا رصد حركة تأثر المعنويات وملاحظة الحالة النفسية الصهيونية المنعكسة على الأدب بعد الانطلاق للانتفاضة المظفرة في فلسطين والتي يسفح بها الأطفال بقوة الغطرسة الصهيونية. فها هي الدلائل تؤكد مدى تأثير القدرات النضالية للأجيال الفلسطينية الجديدة مما خلق في الجانب الصهيوني انتكاسه حقيقة. فالحجارة تزداد معها الآلام. فتذكر بالآلام القديمة وقد رسمت الشاعرة «أنا نحرينو» مسيرة هذه الأزمة النفسية في قصيدة لها بعنوان «البداية» تقول فيها:

وفرضت أشعار نحيب متعددة

حتى لم يبق لي ما أقوله

إذن هنا حالة نفسية متأزمة. فرق من القتل المتبادل. وقتل الأطفال. لكن دون التخلي عن جوهر الصهيونية. ونرى هذا بوضوح في قصيدة الشاعرة الصهيونية «دانيا رابينوفتش» في قصيدة لها بعنوان «حجارة» تقول فيها:

بين اعتقال واعتقال

وربما ضربة هراوة

وربما رأس مجروح ويد مكسورة

كل شيء جائز بالنسبة لهم

أيها الأولاد. الأولاد. الأولاد

عودوا إلى البيت أيها الأولاد

كيف ستعيشون بلا استراحة

ماذا تريد الشاعرة أن تقول؟ هل هي تتألم هنا من أجل الأطفال الفلسطينيين؟ يبدو أن الأمر كذلك إذا نظرنا إلى القصيدة نظرة سطحية لكننا إذا ما تعمقنا في بنيانها الداخلي نجد أنها تستبق الأحداث فترثي وجود الكيان برمته. فلقد أصبحت الانتفاضة هاجساً مرعباً لكل الأجنحة الصهيونية بل «دقت طبول القبيلة» في نفوس أولئك الذين كانوا يقولون عن أنفسهم أنهم تقدميون ومتنورون.

إذن فالشاعرة تدعو الأطفال ليستكينوا حتى لا يصابوا بالجراح. وتلتقي أجسامهم الغضة مع الهراوات الغليظة لجنود الاحتلال. وكان أجدر بالشاعرة أن تدعو إلى انسحاب هؤلاء الجنود بل وإلى تقويض المجتمع الصهيوني إذا كانت تدعي التقدمية والإنسانية وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا فرغ اليهودي من صهيونيته فهل يحدث هذا؟ بالطبع لا يمكن لأن الصهيونية مرتبط بالتوراة والأفكار التلمودية التي هي أساسها وبالتالي فإن الشاعرة تعالج إذن ظاهرة مجتزأة من سياقها الاجتماعي والسياسي وكأن الأمر يتعلق بلعبة خطرة يمارسها الأطفال على حساب العودة إلى البيت والاستراحة ولكن أي بيت؟ وأية استراحة؟

قصة الأسير

لا شك أن قصة الأسير من أشهر قصص البراءة الزائفة «ليزهار سمولنسكي» تتحدث هذه القصة عن راع عربي يدعى «حسن أحمد»

أسرته فرقة عسكرية صهيونية بينما كان يجلس تحت شجرة متفيئاً ظلها في يوم صيف قائظ ويرقب قطيع أغنامه باطمئنان ويوضح الكاتب كيف كانت المعاملة سيئة «شتم، إهانات، ضرب، سخرية» وتوضح القصة الصراع النفسي عند الجندي الذي طلب منه نقل الأسير إلى معسكر قريب. هذا الصراع المتماوج بين الواجب والإنسانية الجندي يخاطب نفسه في حوار داخلي: «يجب أن توقف السيارة وتطلق سراح هذا الأسير. وهكذا ستكون النهاية نهاية مختلفة». لكنه يصحوا إلى نفسه ويتساءل: «كيف أستطيع ليس الأمر في يدي.. لا.. لا.. هذا غير صحيح لست صاحب الأمر أنا مجرد رجل ينفذ الأوامر وليس على ذنب فيما أصابه».

«سمولنسكي» في هذه القصة يريد أن يضرب عصفورين بحجر يغذي القارئ بالقيم الإنسانية للدعاية الصهيونية والتمسك بالواجبات العسكرية في وقت واحد وان كان في نهاية الأمر قد رجح الدافع العسكري على الروح الإنسانية. من جانب آخر نجد أن سمولنسكي الذي يدعي الإنسانية لم يستطع أن ينزع من نفسه صفة التعالي التي أصبحت طابعاً عاماً في الأدب العبري فاختار للقصة بطلاً ساذجاً «عربي طبعاً» الأمر الذي يظهر كثيراً في الأدب العبري.

عن هذه القصة يقول غسان كنفاني «إنها محاولة لتصوير ما تردده وسائل الإعلام عن البطولات اليهودية الخارقة. إن البطل العربي في القصة ما زال يختار بعناية ودقة ليؤدي دوره في الموزاييك الصهيوني إنه تقريباً، بهلول «ساذج فثمة حرب وهو خارجها تماماً وبكلمة أخرى إنه العربي غير القادر على مواجهة خصمه»، أما الدكتورة «حياة جاسم» فتقول عنها: «لم يكن هناك شر في العالم يحذر من شرور آتية».

وبشكل عام فإن سمولنسكي يوجه النقد لأصحاب الادعاءات الصهيونية ولكن هذا التجاوب مع العقلانية لا يغير صورة العربي عنده فهو عدو لا يزال جباناً وأخرق أمام شجاعة الصهيوني. ويوسع جندي صهيوني واحد أن يعبث بمجموعة من الجنود العرب ويسخر منهم والأسير العربي هنا يستدر عطف الكاتب لسذاجته لا لعدالة قضيته. إن تجاوبه مع الشخصية العربية تجاوب ظاهري وسلبي ولا يخرجه عن دائرة الولاء للصهيونية. سمولنسكي يعاني صراعاً مريراً لإطلاق سراح الأسير العربي ولكن ولاءه للصهيونية. يتغلب على نداء العدالة في نفسه فيرسل الأسير العربي إلى حتفه وهو ما ينسحب على معظم أعمال سمولنسكي ففي قصته «خربة خزعة» التي يتحدث فيها عن قرية عربية لحتلها فرقة من الجنود الإسرائيليين عام 1948 في هذه القصة يدور حوار بين الكاتب ومجموعة من الأفراد الذين يؤمنون بآرائه من جهة وجماعة أخرى من الجنود ممن يؤيدون الحرب والاحتلال والطرد والقتل. من جهة أخرى ومن ثنايا القصة يصور الكاتب مختلف الآراء تجاه العرب لدى فئات متعددة من الإسرائيليين يقول «سمولنسكي»:

«وشاهدنا امرأة عربية مع بعض رفيقاتها وكانت تمسك بإحدى يديها ولداً في السابعة من عمره» هذه النزعة الإنسانية ينسفها سمولنسكي تماماً عندما يكرر في ثناياها الإشارة المستمرة إلى ما حل باليهود في العهد النازي ويدعى أنه خجل أمام المرأة العربية «لقد شعرت بالخجل أمامها وأشحت بنظري عنها ولقد رأينا فيها امرأة لبوة. عبرت تقاطيع وجهها عن صبر واحتمال أنها مستعدة لتحمل المشاق. وتأبى أن تنهار أمامنا على الرغم مما حل بها ولقد لمسنا ما يعتمل في نفس طفلها أن تقاطيع وجهه تدل على ما سيكون في المستقبل. الطفل الضعيف الذي لا يستطيع غير البكاء سيكون أفعى سامة».

ادعاءات إنسانية زائفة

عجيب أمر سمولنسكي الذي يدعي الإنسانية أنه لا يريد الطفل الذي سيصبح رجلاً أن يقاتل الذين انتزعوا أرضه. ويواصل سمولنسكي في قصته القول «وبعد قليل تحركت السيارة الثالثة. أي جمود يسيطر علينا وأية لا مبالاة كأننا لم نكن لاجئين أبداً وكأننا مهاجرون فقط لكن ما هو المخرج؟» سمولنسكي هنا يدعي أنه ضد التهجير وطرد الفلسطينيين لكنه لا يقدم على عمل يمنع ذلك سوى أن يذهب إلى النازحين ويقول لهم عودوا إلى بيوتكم ولكنه لم يفعل هذا إذن ما الفائدة من سرد هذه الأفكار وما فائدة وقوفه مكتوف اليدين. إنها البراءة التي تظهر زيفها إذ أنه لا يختلف مع معارضيه ولعله شاء أم أبى، شريكهم في عملية التهجير في قصة «على حد رصاصة» بقلم «يتسحاق أورباز» نجد فكرة مشابهة للفكرة التي أوردها سمولنسكي في «الأسير» غير أن أحداث القصة كتبت بعد حرب سيناء عام 1956. وهي كذلك تدور حول حياة جندي عمل في قطاع غزة وفي سياق هذه القصة يأتي الجندي إلى أحد المغاور في تلك المنطقة فيجد عربياً مسلحاً ولكن هذا العربي سرعان ما يلقي بندقيته. ويبدأ بالتوسل إلى الجندي الإسرائيلي ويصل به الأمر إلى تقبيل قدميه كي لا يقتله. وأخذ يزعم في توسله أنه يحب اليهود وتستمر القصة «وعندما كنا جالسين نهض إبراهيم فجأة وأخذ يركض ولكنه اصطدم بالشجرة وسقط وأمسكت بالعوزي «البندقية» لكي أفعل شيئاً بهذا العربي. وفجأة رأيت أفعى سامة».

رغم أن الكاتب هنا يود أن يلمح بأن هذا العربي قد لا يكون جيداً فقد يكون نافعاً. إذ أنه حاول إنقاذ اليهودي من الأفعى. إلا أنه «الكاتب» لم يستطع أن يهضم ذلك في عقله الباطن فأظهر فوقيته وعنصريته وكأن هذا العربي شيء مهمل كأي جماد مثلاً «وأمسكت بالعوزي لأفعل شيئاً ما بهذا العربي» أي رغم الموقف الذي يبدو إنسانياً في هذه القصة إلا أن الكاتب لم يتحرر من نزعة سادية نحو العرب كأن يهوى الأسير العربي نحو قدمي الجندي يقبلهما، ويعلق أحد الكتاب على هذه القصة فيقول «أنه من جهة واحدة يصعب على الكاتب أن يعامل الأسير معاملة إنسان يبدو له أن هذا الإنسان بدون صفات إنسانية أنه مجرد حيوان».

وهكذا تتضح البراءة الصهيونية والأحزان الموضعية لبعض الكتاب لكن صهيونيتهم تدفعهم في النهاية للانتصار لتربيتهم الفوقية وغطرستهم ضد العرب فهم إنسانيون مع اليهود فقط. أما العرب الجهلة فلا داعي لذلك.

كتبت الروائية الإنجليزية ماريا إدجورث عام 1817 رواية بعنوان «هارنجتون» قدمت فيها شخصية يهودية تتمتع بصفات طيبة. إلا أن الكاتب الصهيوني «بنيامين دزرائيلي» يرد عليها بروايته «دافيد ألوري» عام 1833 بإعطاء بطله الصفات التي امتازت بها الصهيونية: العنف، العنصرية، العظمة والإيمان برب الجنود بهدف إيقاظ الشعور القومي الحربي لدى اليهود. كي يتذكروا ذلك الرب المحارب الذي كان يقاتل معهم في حروبهم ومجازرهم في فلسطين. إن إعادة التذكير «برب الجنود» من شأنه أن يثير تلك الفئة المحاربة التي لم تعرف في حياتها الاستقرار. إلا من خلال الحرب ضد الشعوب أو من خلال الخضوع والسبي. وهذا ما لاحظناه في تاريخ بني إسرائيل واليهود ومنهم المقهورين الذين تبنوا هذه العقائد ليكونوا محاربين وليكون

انه الحرب وحب الجنود متناسباً مع تطلعاتهم الحربية والعسكرية إن هذا التعلق المنسي لابد أن يثير اليهود ويستثيرهم للقفز مرة أخرى والتحفز للعدوان. إذن فالاغتصاب والقهر والاضطهاد تشكل جوهر الفكر الصهيوني ومنطلقاته الأساسية «فالذئاب» سادة الأرض لا الإنسانيون المتسامحون.

ولا غرو في ذلك فسلسلة تاريخهم تروي تعطشهم للدواء حتى إذا لم يجدوا من يقتلونه أسقطوا حقدهم على أنفسهم إلى درجة وصلوا بها إلى قتل أنبيائهم. في زيارة لها لمنطقة الجليل تتوقف «جولدا مئير» فجأة، وتترجل من سيارتها أمام شاخصة تشير إلى اسم قرية عربية، كتب عليها الاسم بالعبرية والعربية فتأمر مرافقيها بحزم بطمس الاسم المكتوب بالعربية وإبقاء الكتابة العبرية قائلة: «لا مكان للعرب أو العربية في دولة اليهود» وهذا يوضح أن كل ما هو عربي مكروه عند اليهود، أو غريب غير مفهوم، وإسرائيل محاطة بدائرة كبيرة من الظلام وهذه الدائرة الخارجية هم العرب بلا ريب وهي تحارب الدائرة الداخلية المشعة بالنور أي إسرائيل بمعنى أن إسرائيل هي الممثل للحضارة في الشرق العربي، وما العرب إلا أعداء الحضارة الإنسانية وهكذا كان النفاذ إلى أعماق الفرد الصهيوني، وكان الأدب الوسيلة الممكنة لاقتحام نفوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية، فالأديب الصهيوني «حانوخ برطوف» يرى أن «الوجود الصهيوني لكي يستطيع البقاء توجب عليه القتل» وقد لخص الكاتب الصهيوني «موشيه شامير» أهداف الأدب الصهيوني في المرحلة السابقة، فكان البطل فيه عاملاً ضد الظلم النازي عبر صور لا تخلو من الغزل وها هو الشاعر «شمعون هالكن» يناجي هذا البطل وأمثاله فيقول:

هلا كنتم كالقدماء تحدياً
يا حراس المزامير المقدسة
وليكن بعدها ما يكون
أنتم يا أحرار الجيتو تخلفون الأغيار
وراءكم في المحيطات
ومهما تريدون يكون
تتعلمون منذ الصغر
القطاف من الأمم وليكن ما يكون...
فهذا طريقنا ليس إلا...

البطل في الأدب الإسرائيلي

يأتي دور البطل الصهيوني في رفض الاندماج الذي لا يرضي التركيب العضوي للبنية الصهيونية والعقل الصهيوني المتزمت، ولقد وضح «هس» ذلك حين قال: «وقد يصبح اليهودي مواطناً في بلد يأخذ جنسيته، لكنه لن يقنع الأغيار أبداً بانفصاله عن قوميته» وهذه كانت وظيفة الأدب: تزرع بذور الأفكار والرغبات الجديدة التي بدأت تأخذ فاعليتها بالعداء للألمان، وهنا يصبح الأدب الصهيوني دون رسالة تخدم البشرية، بل هو منظومة من النتاجات يمكن إدراجها تحت اسم «الأدب العنصري» الذي يحمل بين طياته الازدراء للآخرين والدعوة إلى العنف والاغتصاب واحتقار الشعوب صراحةً، ويتضح هذا العداء للشعوب في قصيدة نشرتها صحيفة «دافار»:

ليل الألمان طويل ونور عمرهم ضئيل
فنحن خالقو ألمانيا بيد حديدية فتية
ونحن قادرون على صنع نعشها بلا اعتراض
أرض ألمانيا طوع يدنا وروحها ترتعد
بعد الجبروت كأس سنجرعه مراراً

وهنا تظهر صورة البطل الصهيوني بقدر ما لديه من رغبة في الانتقام، فهو عادة مجازف وخارق لا يعرف الشفقة ولا يملك حساً أخلاقياً أو إنسانياً بل صوراً وكوابيس تسيطر على قواه العقلية ناتجة عما سمع به من مجازر لحقت باليهودي وتدفعه لاتخاذ الموقف ذاته ضد العرب إلا أن هذه الرؤيا وهذا المنطق يحتم على الكاتب تبرير التزام أبطاله لهذه الأخلاقية وهو الذي يدعي أنه عانى أهوال المعتقلات والإبادة مما يدفعه للوقوع في التناقضات، لذا يصبح هذا البطل على رأي «بيالك»:

لا يقيم صداقات فإرثه الألم
والقلب يضمر العواصف
والعاصفة دم.

هذا القلب الصهيوني هو الذي انتزع شعر العربية الفلسطينية «خديجة» وهو الذي سحق السجناء في «كفاريونا» وقام بالعديد من المذابح، ويسحق البيوت كل يوم على قاعدة أن إسرائيل «هي أرض لنا» والعرب الذين يعيشون فيها إذا ضايقونا نطردهم، ولو رجعنا إلى ما كتب «دايان» عام 1967 نرى أشكال الأدب الصهيوني كما ركز على إبراز الشخصية الإسرائيلية المحاربة وكأنها «السوبرمان» الذي لا يختبئ ولا يؤسر ولا يهرب، وقد تراود الشاعر بعض الأفكار هنا أو هناك ولكن بطله دائماً يحب القتل، فها هو يوضح ذلك بقوله:

أرى العيون الميتة الصامتة
أرى حكمة الدولة
حكمة الحرب في أفواه المجانين
الحساب سنجريه فيما بعد
أما الآن فأنا القاتل

قد يعتقد قارئ هذا النص أن الشاعر يحتج على القتل ويدعو لمحاسبة الطغمة العسكرية المحركة للسياسة الصهيونية ولكن يتناسى أنه شارك في القتل، وكان يستطيع أن يرفض المشاركة برفض قتل الأبرياء ولكن عنصريته أبت عليه ذلك.

«مناحيم بيجين» كان طموحاً لتثبيت قيادته عبر مباشرته مذبحة دير ياسين فتفاخر بقتل 245 رجلاً وامرأة وطفلاً في هذه المذبحة، فأفكار هرتزل مازالت حية في فلسطين المحتلة، فالقتل طهارة عند اليهودي وهذه «نعمة شيمر» توضح ذلك:

لو أنهم تلاميذ مجتهدون
لكانوا استخدموا الدبابة من مسافة قريبة
ودمروا البيوت والشوارع ولم يتركوا أحداً
وبهذا يكونون قد حافظوا على طهارة السلاح

وإذا لم يكن القتل فاحتجاز الضحية في قريته أو منطقته ومنعه من مغادرتها للقيام بأي عمل كان، لفترة غير محددة وقد كثر بصورة خاصة استعمال هذه القيود ضد مواطنين عرب لهم ارتباط بمنظمات سياسية أو لهم نشاط اجتماعي أو ثقافي لا يرضى عنه الحكم العسكري.

من المحزن والمأساوي أن نحاول فهم المسألة اليهودية والصهيونية وإسرائيل في الأدب خارج سياق التاريخ العام وبمعزل عن النظام العالمي، فالصهيونية تستمد خصائصها من خصائص النظام السائد في العصر الراهن وبالتالي فإن فضح خصائص هذا النظام فضح لخصائص الصهيونية، وعندما نتصدى لبعض المقولات الملفقة والخاطئة التي فرضتها القوة الغاشمة وأنتجتها الأوهام والأخطاء فإن ذلك يعني حكماً التصدي للمقولات الصهيونية.

لم يرث اليهود العهد القديم فقط، بل أيضاً تاريخياً طويلاً من اللاشعور الجمعي، بكل محتوياته ومكوناته وعقده النفسية «الشعور بالذنب»، وعقدة أوديب، الشعور بالدونية والتعالي... إلخ، وفلسفتهم وكتبهم زاخرة بالأقوال التي تدلل على تلك الحالات، في التوراة يمكن الاطلاع على مئات الكلمات مثل: السيطرة، القتل، التعالي، الشاذ، القذر، النجس، وكلها كلمات معروفة في العيادات النفسية ويرى

المسيحيون أن الشعور بالذنب عند اليهود ناتج عن الجريمة التي ارتكبوها بحق المسيح بينما يرى «فرويد» أن السبب وراء ذلك كان قتلهم موسى. فالقتل غير المبرر وغير المتسامي بحد ذاته يشكل سبباً سواء أكان المقتول المسيح أم موسى أم الشعوب. أما الخلود فتبلورت فكرته عند اليهود نتيجة الأحداث الصعبة التي زجوا أنفسهم في أتونها وهام بها اليهودي تفادياً للتحلل المحتمل في المجتمعات. من هنا أصيب اليهودي بعقد نفسية بالغة حيث السقوط الفجائي من الشعور بالعظمة إلى الدونية. فعلى عاتقهم تقع مسؤولية إنقاذ البشرية إلى جانب اعتبار «الغوييم» حيوانات في خدمة «شعب الله المختار». وهذه العقدة اللاشعورية تستحث تكراراً المشاهد عبر التشارع وهذا ما تتبناه الصهيونية السياسية وقبلها الصهيونية الأدبية لإعادة تربية الأجيال وفق السلوكية المرضية هذه والمنطلقات الميتافيزيقية التي لا تخضع للمنطق العلمي. وبات الأدب مقتصراً على طرح هذه الأفكار. ففي قصيدة نشرتها «معاريف» بتاريخ 1978/5/10 نقرأ الآتي:

اعتمر الخوذة استعداداً لمسيرة الدم
جائلاً بعينين إلى اثار الحمقى
امتشاق السيف جزء من آدميته
لرعشة الفرح واحالة الحرب إلى سعادة

إن الصهيونية سبقت «النيتشوية» بعدة قرون بفكرة الرجل اليهودي المتفوق.

الرجل النقي الذي هو غاية في حد ذاته والذي خلق العالم من أجله. إذن فالبطل الصهيوني هو المحارب الذي يعتمر الخوذة ويمتشق السيف والدبابة ليجعل العالم من أجله. ولقد وضح «بيجن» أن عادة حمل السيف إنما هي عادة يهودية قديمة وليست ميزة صهيونية. وهذا الأمر يوضح أن التاريخ الصهيوني تاريخ عسكري ملفق استخدمت في تلفيقه براعة شيطانية لا يمكن إنكارها. فاليهود أكثر حشداً، والمفاجأة دائماً معهم رغم أن في التاريخ اليهودي لم توجد في أي حرب ولا في أي معركة ضمن هذه الحروب «مواجهة» بالمعنى الصحيح على هذه القاعدة سارت الصهيونية الأدبية فأصبحت القصائد التي تتضمن مفهوماً سياسياً في الشعر الصهيوني باستثناء ردة الفعل النفسية لا تخرج عن الأطر العامة التي حددتها المسيرة الصهيونية. فكلها سواء الصريحة منها أو الرمزية لا تتخلى عن الهدف الاستراتيجي. فكان يجب على البطل تنفيذ هذه الثوابت التي يطرحها «ديدي منوس» عندما جسد مبادئ «كامب ديفيد» في قصيدة «الفيبوية الساحرة»:

كذلك نذكر الأساطير
مجرى أحداث وأمور، ومواقف
دمر «بيت الملكة» قبل الأذن
رغم اليأس والبكاء
بكامب ديفيد تكمن الحياة
هناك «إذا لم تحكم الرغبة»
فسيفرض السلاح نفسه

دونية العربي مقابل الصهيوني

«يهودا بورلا» قاص صهيوني يظهر البطل في قصته «تزوج في شعبه» مخلصاً لقضيته يقدم كل شيء من أجلها. يتخلى عن المكسب والمال في سبيل إنجاح مهمته «فلقد قبل جدعون المهمة المناطة به، شراء الأسلحة، دون نقاش، وقام بتنفيذها على أحسن وجه وحكمة». بينما يظهر لنا العربي غبياً يتراجع بسهولة أمام المغريات المادية. ومع أنه يعرف كما ذكر «بورلا» في قصته «أن السلاح سيصل إلى الهاجاناة». بورلا هنا يتفق مع «سمولنسكي» في قصته «في ظل البيارات» الذي أورد على لسان إحدى العائلات اليهودية التي تعيش في بيروت «إنك تستطيع شراء العرب بالمال، لأن المال عندهم هو كل شيء». وهنا تزوير حقيقي للتاريخ، ففرق كبير بين العربي في مروءته وبين اليهودي في جبنه وشحه القاتل. وليس غريباً ما أوضحته الآداب العالمية من هذا الأمر وأبرزها «قصة تاجر البندقية»!!

مفهوم البطولة عند الصهاينة

والبطولة عند الصهاينة قاعدة عريضة تمتد لتصل للأطفال أيضاً. فلقد برزت لهجة «السوبر طفل» الإسرائيلي، بكل صلفها ووقاحتها وعنفها واستخفافها في أعمال الكتاب الصهاينة «كرمبلي، وعوديد، ووان سترنغ، وستمير». فكل أعمال هؤلاء تمجد بطل اليهود كبطل أسطوري، حتى كلاب اليهود أفضل من كلاب العرب. فالكلبة «غريته» توصل الورقة لمسكر الجيش بل وتبلغ عن نشاط القوات السورية أي أن اليهودي يرى في الكلاب أفضلية على العرب ويرى هؤلاء الكتاب أن اليهود عندما يبدأون بإطلاق النار يصاب الجنود العرب بالهلع ويركنون إلى الفرار».

خاتمة

وهكذا يتضح لنا أن الاستيطان والاستيلاء على الأرض منذ البدايات الأولى للهجمة الصهيونية واكبتها حركة أدبية وفكرية نشطة تدعو لامتلاك الأرض محاولة تزوير التاريخ بأن هذه الأرض بدون سكان، وأن الصهاينة الرواد هم الذين عمروها بعد أن كانت مستنقعات وصحاري مليئة بالحشرات والأمراض. وما رواية شموئيل عجنون «بالأمس الأول» إلا صورة واضحة للصهيونية الأدبية المبكرة.

الاستيطان هذا وبالمفهوم الصهيوني لا حدود له، فهو قديم جديد ومتجدد تحكمه عوامل القوة واستغلال الظروف العالمية بما في ذلك الاتكاء على حليف قوي يمكن أيضاً استبداله في الوقت المناسب. وفي هذا المجال ها هي الصهيونية تعمل كل يوم على تهيئة الظروف الملائمة لابتلاع المزيد من الأرض عن طريق العدوان المتكرر هنا وهناك، وبمساندة الإمبريالية الأمريكية المعادية للأقطار العربية تمشياً مع السياسة الثابتة التي تقوم على فرض الأمر الواقع، وقد شكلت هذه الحملة الاستيطانية ذروة خطيرة لهذه السياسة التوسعية العدوانية دون أدنى اعتبار للمواثيق الدولية أو قرارات الأمم المتحدة التي تدين سياسة ضم الأراضي بالقوة.

على هذه القاعدة من الوعي الأيديولوجي السلبي، وظفت الصهيونية الأدب والفن لتمرير سياستها الاستيطانية ولخلق الجيل الإسرائيلي المشوه فكرياً بزرع الأفكار السامة والهدامة في عقله على أساس أن هذه الأرض للإسرائيليين فقط، ومن عليها من سكان من غير الإسرائيليين غرباء وبقايا مستعمر قديم، بل تطرقت الصهيونية الأدبية للشخصية العربية مبرزة إياها في أدنى مراحل الانحطاط البشري الجسماني والسلوكي، وكأن العرب من بقايا الحلقات المفقودة في كائنات علم التطور، فالعربي جاهل، سارق، جبان، سيئ، يشبه الخنزير في تناوله للطعام، دموي وقاتل، وغريب الملامح شعره أخضر وأشعث يحب القتل والنساء ويغتصب الأطفال، ورجل هذه صفاته الأجدر به أن يموت. هذه المفاهيم تزرعها الصهيونية في نفوس الأطفال كل يوم، وتحقن بها أفكارهم وعقولهم، وتشكل منهم بلدوزر الفعل العدواني القادم ضد العرب، بل وضد أنفسهم أيضاً.